العلماء وتجديد العلم

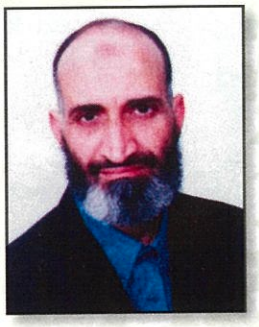

فريد الأنصاري
رئيس المجلس العلمي
بمكناس

□ إن حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - يحدد "إمامة" بعثة التجديد، وينص عليها بصورة واضحة، لا غَبَش فيها ولا إبهام. وذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ. وإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)[1]. بيد أن "الوراثة" هاهنا تقتضي إرْث العلم بكل وظائفه الدعوية والتربوية. لا مجرد العلم الخالي من كل عمل، ومن أي رسالة! فذلك علم مدَّعَى غير موروث! فالعلماء الورثة: هم أهل الرسالة، وحُمَّالُ البلاغ القرآني. ولقد أصَّلَ أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله (ت: 790هـ) لذلك تأصيلاً. وهو أحد أئمة التجديد في الأندلس، خلال القرن الثامن الهجري. فوصف العالم المتصدر للتربية والتجديد؛ بالعالم "الوارث"، والعالم "المُنْتَصِب"، كما وصفه بـ"الرباني"، و"الحكيم"، و"الراسخ في العلم"، و"العالم"، و"الفقيه"، و"العاقل". في نصوص جديرة بأن تشد إليها الرحال! وهي اصطلاحات كلها دالة عنده على "إرث" النبوة في منهج التربية والتعليم والتزكية للأمة. (فالانتصاب) إنما هو تجرد لمهمة البلاغ. تماما كما تنتصب الجبال بين الصحارى والبطاح؛ أعلاما للضالين عن الطريق، فيراها كل العابرين، وتكون بذلك مثارات اتباع واقتداء.

قال رحمه الله: (إن المنتصب للناس، في بيان الدين مُنْتَصِبٌ لهم بقوله، وفعله! فإنه وارث النبي! والنبي كان مبينا بقوله، وفعله. فكذلك الوارثُ لابد أن يقوم مقام الموروث، وإلا لم يكن وارثا على الحقيقة! ومعلوم أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتلقون الأحكام من أقواله، وأفعاله، وإقراراته. وسكوته، وجميع أحواله. فكذلك الوارث. فإن كان في التحفظ في الفعل؛ كما في التحفظ فى القول؛ فهو ذلك! وصار من اتبعه على هدى. وإن كان على خلاف ذلك صار من اتبعه على خلاف الهدى! لكن بسببه!)[2] وقال في منهج اقتداء الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم: (وكانوا يبحثون عن أفعاله، كما يبحثون عن أقواله. وهذا من أشد المواضع على العالم المنتصب!)[3]

لا تجديد لحال الأمة إلا بتجديد فقهها! ولا تجديد للفقه إلا بتجديد مناهجه

وقال رحمه الله في تفصيل الخصائص المعرفة للعالم الرباني المنتصب، واصفا إياه بأنه: (يتحقق بالمعاني الشرعية منزلة على الخصوصيات الفرعية، بحيث لا يصده التبحر في الاستبصار بطرف؛ عن التبحر في الاستبصار بالطرف الآخر. فلا هو يجرى على عموم واحد منهما؛ دون أن يعرضه على الآخر. ثم يلتفت مع ذلك إلى تنزل ما تلخص له على ما يليق في أفعال المكلفين (...) فهو صاحب التمكين والرسوخ، فهو الذى يستحق الانتصاب للاجتهاد، والتعرض للاستنباط (...) ويسمى صاحب هذه المرتبة: الرباني، والحكيم، والراسخ في العلم، والعالم، والفقيه، والعاقل؛ لأنه يربي بصغار العلم قبل كباره، ويوفى كل أحد حقه، حسبما يليق به. وقد تحقق بالعلم وصار له كالوصف المجبول عليه. وفهم عن الله مراده. ومن خاصته أمران: أحدهما أنه يجيب السائل على ما يليق به في حالته على الخصوص، إن كان له في المسألة حكم خاص (...) والثاني: أنه ناظر في المآلات قبل الجواب عن السؤالات!)[4].

ذلك هو عالم التجديد إذن؛ داعية

ربانيٍ حكيم مجتهد، منتصب للناس بعلمه وورعه؛ مُعَلِّماً، وداعيا، وهاديا، ومربيا.

وملاحظة السيرة النبوية تفضي إلى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد كوَّن عددا كبيرا من علماء الصحابة. كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وغيرهم كثير! جيل من العلماء الأئمة، كانوا فقهاء، وحكماء ربانيين، ولم يكونوا مجرد نقلة. بل أسهموا في بناء حضارة الأمة، ونهضتها الأولى.

وبعثة التجديد لن تكون إلا بمثلهم، منهجيا. أي بقيادة علمية متميزة كمّا وكيفا. فلا بد من عدد وفير من أهل العلم، من الذين يحملون الرسالة، ويشتغلون بالقرآن؛ تعليما، وتزكية، وتفقيها في الدين. وإنما أولئك هم العلماء الربانيون، كما جاء في بعض تراجم الإمام البخاري رحمه الله[5]. والذين لا تفتنهم آحاد الجزيئات عن ملاحظة الكليات، ويراعون المآلات قبل الجواب عن السؤالات! إنهم قوم يحملون أخلاق النبوة علما وحِلْما!

هذا، ولقد ظن بعض أهل الخير من المشتغلين بالدعوة اليوم؛ أن الناس قد انصرفوا إلى طلب العلمي الشرعي بوفرة زائدة عن الحاجة! ولا يزالون ينصحون الشباب بالعدول عن ذلك؛ بدعوى أننا في حاجة إلى الطبيب المسلم، والمهندس المسلم، والفيزيائي المسلم. وأقول: نعم، نحن في حاجة إلى كل أولئك وأضرابهم، لكن حاجتنا إلى العلماء المجددين آكد وأشد! ودعوى حصول الكفاية من العلماء باطلة! فأولا ليس كل من انتسب إلى العلوم الشرعية هو من علماء التجديد. فإنما العلماء: الفقهاء الربانيون الوُرَّاث. وليس العالم المنتصب أو الوارث هو من جمع في ذهنه عددا كبيرا من المحفوظات والمكتبات! ولكنه من أوتي حكمة التصرف في المعلومات، بما يناسب الزمان والإنسان!

إن أمثال هؤلاء ليس منهم في الأمة إلا الندرة! بله القلة، بله الكثرة والوفرة! ولقد رأيتَ كيف أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد خرَّج للناس منهم جيلا! فما بالك بزماننا هذا؟ وقد بلغ عدد المسلمين في العالم مليارا ونصفا! هذا إذا حددنا مخاطَبنا في المسلمين خاصة، وإنما الإسلام جاء لمخاطبة العالمين!

العِلْمُ موضوعاً للتجديد

من المعلوم أن "ترجمة" الإمام البخاري، مشهورة جدا في كتاب العلم من صحيحه؛ لباب: (العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله تعالى: "فاعلم أنه لا إله إلا الله"(محمد:19). فبدأ بالعلم)[6]. والعلم باعتباره قضية من قضايا (بعثة التجديد) ركن من أعظم أركان البعث والإحياء؛ غايةً ووسيلةً، فبالعلم كانت هذه الأمة، وبه تكون مرة أخرى بحول الله.

والطريق الفعلي لذلك يكون ببناء أمرين اثنين في العلم، هما: التأهيل والتأصيل.

فالتأهيل: راجع إلى مشروع تكوين نُخَب من الشباب في العلوم الشرعية، ممن ظهرت فيهم مخايل العبقرية في طلب العلم؛ حتى يتحققوا بمفهوم العالمية بكل معانيها التخصصية والتربوية، ويكونوا بالفعل أهلا للاتصاف بلقب "عَالم" عن جدارة واستحقاق. على مستوى المَلَكة الفقهية، والربانية الإيمانية، والقيادة التربوية الاجتماعية. وهي أركان العالمية الثلاثة.

وأما التأصيل: فهو راجع إلى مشروع تحقيق قضايا العلوم الشرعية عامة، وخاصة الأحكام الفقهية منها؛ بربطها بأدلتها، وبناء مناهج استدلالها، ومقارنة مذاهبها، وتوجيه خلافها العالي والنازل. والقصد من ذلك كله إنما هو إحياء الثقافة الفقهية الأصيلة، وتجديد المَلَكة الاجتهادية في الأمة، وإعادة بث أدب الخلاف؛ بما يجعل الأمة تستعيد قدرتها على احتضان الآراء المتعددة في العلم، ما دامت تستجيب للأدلة الشرعية المعتبرة، من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما انبنى عليهما من أصول الاستدلال وقواعده.

بعثة التجديد لن تكون إلا بقيادة علمية متميزة كمّا وكيفا. فلا بد من عدد وفير من أهل العلم. من الذين يحملون الرسالة، ويشتغلون بالقرآن؛ تعليما، وتزكية، وتفقيها في الدين

ذلك أن غياب الثقافة الفقهية تجديدا واجتهادا، قد أدى بالأمة في كثير من الأحيان إلى الجمود على الظواهر من النصوص، أو إلى التجرد من الأدلة كلية. وكلا الأمرين خروج عن حد الاعتدال في العلم. وكلاهما أيضا مؤد إلى الجمود والتقليد. وقد تبين باستقراء النصوص الشرعية، وملاحظة تجارب التاريخ الإصلاحي للمجتمع الإسلامي القديم: أنه لا تجديد لحال الأمة إلا بتجديد فقهها! ولا تجديد للفقه إلا بتجديد مناهجه. وهو مقصودنا بالتأصيل.

نحن في حاجة إلى تجديد قضايا العلم نعم؛ ولكننا في حاجة أشد إلى تجديد مناهجه. وإنما قضاياه تَبَعٌ لمناهجه. فإذا تجددت هذه؛ تجددت تلك بالضرورة. والعكس ليس بصحيح!

إن مشكلة العلم والعلماء اليوم إنما ترجع إلى ضمور

مناهج الصناعة الفقهية وندرتها. والمقصود بـ(الفقه) هنا: المعنى المصدري للفظ، لا الاسمي، أي الفقه من حيث هو حركة عقلية، ونشاط ذهني بالقصد الأول، ينتجها العقل الإسلامي الخبير. فالفقه عن الله ورسوله إنما يقع بعقل العالم الرباني الحكيم - والعقل مناط الفهم والتكليف - بما كان عبدا لله خاضعا لسلطانه. وفقه العقل المسلم هو المقصود في حديث النبي صلى الله عليه وسلم : (نضرَّ الله عبدا سمع مقالتي فوعاها، ثم بلغها عني. فرُبَّ حامل فقه غير فقيه! ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه!)[7] إلخ .

ذلك أن بعض أعلام الدعوة اليوم مثلا؛ لا يعرفون من نصوص القرآن والحديث إلا حكمين شرعيين اثنين: الوجوب والتحريم! فكلما ورد الأمر عندهم حملوه على أصله من الوجوب! وكذا يحملون النهي مطلقا على أصله من التحريم؛ ليس لأنهم يجهلون القاعدة المدرسية المشهورة: (الأصل في الأمر الوجوب؛ إلا أن تصرفه قرينة إلى الندب أو الإباحة. والأصل في النهي التحريم؛ إلا أن تصرفه قرينة إلى الكراهة)، كلا! فهم يحفظونها، لكنهم لا يفقه تنزيلها! فهم بكل بساطة (حاملون لدليل الفقه) وليسوا (بفقهاء). وبينهما فرق كبير. وهو ما عبر عنه الحديث النبوي السابق ذكره: (فرب حامل فقه ليس بفقيه!) إذ لا يعرف مثلا كيف يراعي عناصر السياق الثلاثة: من القرائن، والسوابق، واللواحق؛ ولا كيف يراعي قواعد الدلالة ويوظفها، ولا ما يُعْمِل من مناهج الاستدلال وما يُهْمِل، حسب طبيعة الحكم الشرعي ومجاله، من العبادات أو العادات! فحملوا الناس على العنت؛ جهلا بصناعة الفقه، ومالوا عن الوسط والاعتدال، وخرجوا عن حد الإجماع، الذي جعل الأحكام التكليفية موزعة على الخمسة المعروفة: الوجوب والندب والإباحة والكراهة والتحريم. لقد كانت هذه الأمور معلومة من الدين بالضرورة، بل كانت ثقافة شعبية يوم كان (الفقه) إمام الأمة، ومنهج تلقيها عن الله ورسوله.

إن الفقه "صناعة"! لا بد من إحيائها بالبحث في مناهجها؛ حتى تصبح في متناول (التداول الثقافي) للأمة.

وللأسف فإن كثيرا من البحوث العلمية اليوم في الدراسات الأكاديمية الفقهية؛ تعاني من الهزال الشديد في المنهج، المنهج الذي به يكون البحث "بحثا" أو لا يكون! الشيء الذي جعل أغلبها مجرد "تآليف".

وفرق بين مفهوم "البحث" ومفهوم "التأليف". فالتأليف: جَمْعٌ لما هو موجود من العلم، وتصنيف له، ثم عرض له بمنهج إنشائي. فـ"المؤلف" يجمع الأفكار أو يعيد إنتاجها فقط، ثم يعرضها في كتاب. أما "البحث": فهو كشف عن مجهول. إضافة إلى أنه متضمن لمعنى "التأليف". لكنه يزيد عليه بكونه تجديدا في عمران العلم، أو زيادة - مهما قلَّتْ - في صرحه وبنائه. وما أدق كلمة لأبي بكر بن العربي المعافري رحمه الله في هذا! قال: (ولا ينبغي لحصيف أن يتصدى إلى تصنيف؛ أن يعدل عن غرضين: إما أن يخترع معنى، وإما أن يبتدع وضعا ومبنى. وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد الورق، والتحلي بحلية السرق!)[8].

ذلك وإنما الموفق من وفقه الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

إن مشكلة العلم والعلماء اليوم إنما ترجع إلى ضمور مناهج الصناعة الفقهية وندرتها. والمقصود بالفقه هنا: المعنى المصدري للفظ، لا الاسمي، أي الفقه من حيث هو حركة عقلية، ونشاط ذهني بالقصد الأول، ينتجها العقل الإسلامي الخبير

الهوامش:

1 - جزء حديث رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة، وابن حبان، بسند صحيح.
2 - الموافقات: 3/317
3 - الموافقات: 4/250
4 - الموافقات: 4/232
5 - صحيح البخاري، كتاب العلم. (باب العلم قبل القول والعمل).
6 - صحيح البخاري، كتاب العلم.
7 - رواه أحمد، وابن ماجه عن أنس مرفوعا. كما رواه الترمذي عن زيد بن ثابت مرفوعا أيضا. كلهم بسند صحيح.
8 - عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي، لأبي بكر بن العربي المعافري.